والبلاتين والعناصر المشعّة كالاورانيوم وكثير من الحجارة الكريمة كالياقوت والزمرّد واللازورد والعقيق واليشب وغير ذلك

هذا ما رأينا تسطيره بعد العناء الطويل افادةً لابناء الوطن الاعزّ وغاية ما نرغب ان تدبّ فيهم الغيرة والحميّة لاستخراج ما تحتويه بلادنا الشامية من المعادن او على الاقل رجاء ان يضاعفوا الهمم في تحسين زراعة بلادنا وهي الثروة الثابتة التي تُغني البلاد وتشمل بالمنافع عموماً وهي بذلك تفوق ثروة المعادن التي لا ينتفع منها الّا بعض الافراد واصحاب الشركات الماليّة . ونُقنا الله الى ما به الخير والنفع وهو السميع المجيب

الزراعة في العراق

بقلم يوسف رزق الله غنيمة البغدادي

من الامور المقرّرة التي لا يشوبها ريب البتّة ولا يختلف فيها اثنان هو ان توسيع نطاق غنى البلاد وازدياد ثروة الاوطان قائم بترقية الزراعة وتقدُّم الصناعة وامتداد التجارة . وللزراعة المقام الاول بين غيرها من جواذب الذهب ومسبّبات التقدم والعمران فيها تكثر الارزاق وتتوفر اسباب الراحة والهناء فتجري الانهار لبنًا وتفيض عسلًا وتعطي الاراضي الغلّات الوافرة فيجني الغارس الخيرات والبركات ويحصد الزارع ثمرة اتعابه ويشبع الاهلون حامدين شاكرين وما زاد عن حاجاتهم من حاصلات زراعتهم يصدّرونهُ الى غيرها من البلاد فتعوّض بالاصفر الرنان والابيض الفتّان وعلى هذا المبدأ يجوز ان يقال ان الزراعة كنز لا يعرف النفاد وبحر زاخر لا ينضب ماء غنائهِ والامة التي تسكن اخصب ارض هي عندي من الامم الواثقة في بحبوحة الرغد والطمأنينة وان شاءت لامكنها ان تجري شوطاً بعيدًا في الالفة

ان العراق قد دخل اليوم في طورٍ جديد نظرًا الى اهميته مركزهِ اذ انَّ مسألة القطار الحديدي البغدادي قد نبّهت الافكار لدرس مستقبلهِ السعيد ووجهت الخواطر والانظار الى استطلاع دواعي ثروتهِ الزراعيّة فكتبت النبذ الكثيرة في المجلّات والصحف

الّا ان اغلبها لا تشفي العليل ولا تروي الغليل لانها أُخذت نقلًا عن القال والقيل وليس الخبر كالعيان اما هذه الاسطر فقد كتبت بعد الوقوف على اهم المصادر القديمة والحديثة العربيَّة والاوربيَّة وتطبيقها على الحالة الحاضرة . وقبل الخوض في البحث لا ارى بدًّا من تحديد العراق وما يُراد بهذا اللفظ . وقد ذهب مؤلفو العرب مذاهب شتى في تحديده . قال بعضهم : العراق الطور والجزيرة والعبر واوصلهُ غيرهم الى البحرين . امَّا المدائني فارتأى انهُ يمتد من هيت الى الصين ويشمل السند والهند والريّ وخراسان وسجستان وطبرستان الى الديلم والجبال وقال غيرهم : العراق اوَّلهُ شرقي دجلة والعلث على حد طسوج بُزُرْجسابور وهي قرية تناوح حربى . وقوفة على العلويَّة وفي غربي دجلة حربى ثم يمتدّ الى آخر اعمال البصرة من جزيرة عبّادان وكانت تعرف سابقًا بيسان . والعراق هو السواد ايضًا . كل هذه الحدود وغيرها لا تغني اليوم بالمرغوب في هذا البحث الزراعي فرايت الاجدر بان اقتصر في هذه المقالة على ولايتين من ولايات الممالك المحروسة العثمانية وهما ولاية بغداد والبصرة وما تحتويان من السناجق والاقضية والنواحي وعليه فيحد العراق شمالًا ولاية الموصل وجنوبًا خليج فارس وجنوبًا غربًا الصحراء الشاميـة وشرقًا العجم وغربًا متصرفية دير الزور ومساحة هاتين الولايتين تبلغ نحو ٢٧٠,٠٠٠ كيلومتر مربع

وقد عرفت هذه البقعة منذ القرون المتناهية في القدم وأزهر فيها اوَّل تمدُّن اي التمدن البابلي وقد ذهب قدماء المؤرخين الى ان فيها خُبز اول خبز . وبيروسس الكاهن الكلداني يطري اطراء لا مزيد عليه صلاحية هذه الارجاء لزراعة الحبوب ووافقهُ على رايه جمهور العلماء المتأخرين وفي سنة ١٨٠٧ عثر الرحالة اوليفيه (Olivier) في مسيل غير صالح للزراعة على حنطة وشعير قد نبتا عفوًا اي دون زراعة كما اوجدتهما الطبيعة في طورهما الاول وقد عثر بعدهُ غير واحد من العلماء على مثل هـذه الحبوب فلعمر الحق ان هذا لشاهد ساطع على خصب السواد . ولم تصر مركزًا ومحطًا لرحال الاقوام والامم المختلفة الّا لما خصتها الطبيعة بارفى نصيب من جودة المناخ وخصب الارضين وريها وقد حكم الجغرافيُّ البزه روكلو (E. Reclus) بهـذه المسئلة بفكر صائب اذ قال : ليس من ارض وافق فيهـا هيئة ارضها حظوظ اهلها من جهة السعادة والبؤس مثل هذه البقعة فان هذه بالحقيقة قد ظهرت هناك ظهور الشمس في

رابعة النهار اه . اي نعم لولا خصب هذه البلاد وريها لكانت صحراء قفرًا جردا. لا يسكنها بشرٌ ولا يحلُّ بها شعبٌ من الشعوب وكما ان سبب حياة مصر هو النيل كذلك العراق فان سبب حياتهِ هو دجلة والفرات . ولكن اين خصب مصر من خصب وطننا فشتَّان ما بين الثريَّا والثرى فحدِّث عن ريهِ ولا حرج ويوافقني على قولي هذا السيَّاح القدماء وكتبة العرب والزرَّاعون الذين وطئوا هذه البلاد لا بل الاراضي واسمارُها شاهدٌ ناطق على ذلك . ورد في رحلة هيرودوت (١ : ع١٩٣) الكلام الآتي: وتسمى عند (البابليين) الزروع جدًّا حتى لا تضاهيها ارضٌ مخصبة بكل اقطار العالم فان الحبوب تعطي مائتي ضعف وعند الاقيال تعطي اكثر من ثلثمائة ضعف . . . وورق الشعير يعرض اربع اصابع اما الذرة والسمسم فلا اذكر عظم خصبهما وغو جذوعهما لانني اعلم يقينًا ان كل من لا يعرف تلك الاقطار لا يصدقني ولذلك ضربت صفحًا عن ذكرهما . وجاء في معجم البلدان : العراق اعدل ارض الله هواء واصحها مزاجًا وماء اه . وكان الفرس يسمون العراق دِل ايرانشهر ويشبهونهُ بالقلب وسائر الدنيا بالبدن وسمَّى العرب العراق سوادًا لانهم لما اقبلوا اليهِ ورأوا من بعيد اراضيهِ مغشاة بالزروع والنخيل كانهُ يقمة سوداء لقَّبوه بالسواد . وجاء في مادة فلوجة : قرية من قرى بغداد وهي الارض الصلحة للزرع وكذلك اسم الانبار اي الاهراء فانهُ يدل على خصب الارض هناك . فهذه كلها وغيرها من الادلة والشواهد على خصب العراق ليست بشيء بازاء ما نشاهدهُ عيانًا من خصب الارضين رغمًا عن جهل الفلَّاح العراقي واتخاذهُ الادوات السقيمة من النمط العريق في القدم واستعمالهُ الطرائق الزراعية التي يُرثى لسقاطها الى الالوف من السنين وهذا ما اذهل المهندس الزراعي الشهير المستر ولكوكس بعد ان درس العراق الزراعي درسًا جديًّا

ان الفنى الزراعي يتأتى من حسن التربة والري والمناخ وكيفية تدبير الفلَّاح هذه الامور واتخاذهُ الوسائط الفعَّالة لتحسين الزراعة وقصدي ان اتكلَّم عنها كلها في هذه العجالة راجيًا غض النظر عن الزلل واصلاح موقع الخلل والعفو من شيم الكرام

— تربة العراق — نظرًا لوقع العراق الجغرافي فان طولهُ شرقي باريس من ٤٠ ، ٣٨ الى ٣٠ ، ٤٦ وعرضهُ من ٥ ، ٢٩ الى ٣٠ وارضهُ مكونة جيولوجيا من تراكم طمأ النهرين دجلة والفرات المتصل ولهذا تراها سهلة لا جبل فيها ولا ارتفاع يذكر الا جبل

حرين الذي يمتد في مركز سنجق بغداد من الشمال الغربي الى الشمال الشرقي ثم يدخل في ولاية بغداد وعرضهُ نحو ٥ كيلومترات فقط . هذا وان اغلب اراضي العراق صالحة للزرع وهي ذات حصوبة وريع يضرب بهما المثل لان تربتها جيدة وغنيـة بالمواد الكيماوية لتغذية النبات وتقسم على النسبة الآتية تقريباً

١٠/٥ اراضٍ صلصالية رملية وهي جميع مزارع القمح والذرة والسمسم والحدائق والبساتين

١٠/٢ اراضٍ طرّوية نسبة الى الطرا (humus) وهي البطائح ومزارع الارز ومنابت السوس وغيرها

١٠/١ اراضٍ رملية نقية

١٠/١ اراضٍ صلصالية نقيَّة من هذه الاراضي تتخـذ مقالع الصلصال لعمل الآجر

١٠/١ اراضٍ صخريَّة وهي اطراف هيت والفلوجة اذ تكثر مقـالع الجص والكلس والغضار

هذا نظر عام وتقسيم تخميني في اراضي العراق يظهر منهُ بنوع كافٍ مواد تربتها ولهـا في فيض النهرين دجلة والفرات اعظم نصيب من تجديد قوتها وتعويض المواد التي تنقدها كل سنة بتغذية النبات والمزروعات فالنهران في ابان الفيض يخرجان معهما من السواحل والضفاف جذوع الاشجار ونفـاية المزدرعات وجثث الحيوانات وفضلات اوساخ المدن واقذار القرى ثم تمر مياههما على اراضٍ معدنية متوفرة المواد الكيمارَّية من الازوت والحامض الفسفوري والحديد والبوطاس والحامض الكبريتي وغيرهـا فتحمل منها للاراضي احسن هبة وتكسوها بالنيرّيل ولقـد وهم المسيو مالت برون (Malti Brun) صاحب كتاب الجغرافية اذ انكر على دجلة والفرات الطما . فان ميـاههما تكون في زمن الفيض صافية لكن في ابان الفيض تتكدر اعتكارًا كليًا حتى تبـاين للناظر بلون يضرب الى الحمرة . والفيض موسمهُ الربيع من منتصف شباط الى اواخر ايار فتطفح المياه على الاراضي وترويها وتغشيها بغشاوة يختلف ثخنها حسب اختـلاف الاراضي وتتراوح بين الـ ١٠ س الى ٥٠ س والفيض اذا كان معتدلاً يفيد فائدة عظيمة ولكن قد يتجاوز حد الاعتدال ويهدم الاسداد ويغرق المزدرعات فتضيع تلك النعمة

نقمة على الزراعة العراقيَّة وذلك منذ عهد البابليين الى يومنا هـذا . وفي الفيض نظرٌ آخر وهو ان الغرَيل الذي تحملهُ المياه معها تتراكم عند فوهة الانهر وفي داخلها فتطمرها وعلى هذا الوجه اندرست الانهر التي احتفرها البـابليون واليونان والفرس والمسلمون وطمست محاسنها بعد ان كانت تحمل الى البراري المقفرة مياه دجلة والفرات وترويها

— مناخ العراق — انهُ ملائم جدًّا لاغلب الاصناف النباتية لاسيما الفصائل التي تنبت في البلاد المعتدلة والحارة وجانب من نباتات البلاد الباردة ايضًا . فميزان الحرارة يهبط في تلب الشتاء الى ٦° تحت الصفر وهذا البرد لا يدوم الَّا ايَّامًا قلائل تعد على الاصابع وربَّما لا يحدث في كل عام . اما في وسط الحار فيصعد الى ١٠٤° من المقياس المئوي الَّا ان ميزان الاعتدال يتراوح بين ٢٥ درجة و ٣٠ درجة والهواء نقي وجافٌ في اغلب النواحي الَّا انهُ في مدينة البصرة وضواحيها وفي بعض المستنقعات يكثر سقوط الندى والطل ليلًا . والمطر يبتدئ بالسقوط في اوائل تشرين الثاني وينتهي في منتصف أيار غير انهُ في اغلب السنوات لا تكون كميته كافية لسقي المزدرعات التي تبعد عن الانهر . ففي سنة ١٩٠٣ سقط ٣,٧ انش وسنة ١٩٠٤ — ٤,٩٦ وفي ١٩٠٥—٣,١٩ وفي ١٩٠٧ — ٤,٦٥ . وهذا المقياس مأخوذ عن دفتر القنصليـة الانكليزيَّة في بغداد . ولا اعلم كيف ذهب هيرودوت الى انَّ في بلاد آشور لا تمطر السماء ابدًا فالظاهر انهُ زار هذه الاقطار في الصيف اذ لا اثر للمطر عندنا

— ري العراق — ان ماء دجلة والفرات هو اعظم سبب لري العراق والقائم بديمومة خصبه والباعث الى غلته لا بل هو علَّة ازدهاره وكينونة حياته . يخرج نهر دجلة قرب معـادن سوان واهم مصدر لهُ هواوج گول ثم يجتمع اليهِ نهر آخر يدعى عين دجلة على مسيرة يومين ونصف من آمد (اي ديار بكر) . وفي مسيره تارةً يقترب من الفرات وطورًا يبتعـد عنهُ وعند ما يمرّ بديار بكر تصب فيهِ مياه دجلة الشرقيـة ثم الزاب الاكبر والزاب الاصغر ودجلة يدخـل في حدود ولاية بغداد ١٥ كيلومترًا في شمالي تكريت ويجري من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي فيمرّ بدورا وسامرًا ثم على تسع كيلومترات وانت منحدر من بغداد يصب فيهِ نهر ديالة ثم يمرّ بالمدائن وكوت الامارة والعمارة فالقرنة وهناك يمازج الفرات . ودجلة منذ دخوله في خطة العراق حتى اجتماعه بالفرات يقطع نحو ٦٣٠ كيلومترًا

امّا الفرات فمخرجه من قرب مصدر دجلة عند معادن سوان كما سبق القول عنهُ قبيل هذا. ثم يصب فيهِ قسمٌ من مياه بحيرة صغيرة كولجك وتنحدر فيهِ الامطار والثلمات التي تقوم شاخصة على ضفتيه وينضم اليهِ نهر مراد وقبل ان يغادر الارجاء الجبلية تصب فيهِ بعض الانهر التي تجتمع في قمة الحطة العظيمة التي يخطها في غربي سلسلة طورس ومن هذه الانهر : الطوكمه صو ويصب فيهِ في اعالي جبل طورس الساجور ونهر البلخ قرب اورفا والخابور الذي يرد من طور عبدين والفرات يدخل الحطة العراقية في غربي بغداد نحو ٤٠ كيلو متراً في غربي عانه فيمرّ بالحديثة وبغداديّة وهيت والفلوجة والسيب والحلّة والديوانية والملوم والناصريّة وسوق الشيوخ وقرنة ومن اوّل مروره بديار العراق حتى القرنة يقطع نحو ٦٦٥ كيلومتراً امّا شط العرب فطوله نحو ١٥٠ كيلو متراً

ثم ان دجلة والفرات لم يزالا يغيّران سيرهما تارةً في جهةٍ وطوراً في غيرها وذلك امّا من تلقاء ذاتهما واغلب ما يكون في ابان الفيض وامّا طوعاً لاشغال البشر كالاعمال التي باشر بها نبوخذنصر وقورش والاسكندر الكبير لا بل هيرودوت يخبرنا بان نيتوكريس ملكة بابل احتفرت ترعاً في اعالي بابل وبواسطتها تحوّل نهر الفرات الذي كان يدفع مياهه فيها على خطٍ مستقيم وصار جريه متلوياً بحيث انهُ اضحى يمرّ ثلاثاً بقرية اردريكة . وجاء في معجم البلدان في مادة شهرباذان : الفرات تحوّل عنها فاضمحلّت مزدرعاتها وخربت . ودجلة ايضاً قد غيّر مجراه مرّات كثيرة نقرأ في مادة جوخا في ذاك الكتاب نفسه . . . لم يكن في بغداد مثل كورة جوخا كان خراجها ثمانين الف الف درهم حتى صرفت دجلة عنها فخربت وسنعاً لمثل هذه الامور كانت قد بنت الملكة سميرامس في عهدها سدّاً عظيماً على نهر الفرات . ولو اردت الاطالة في هذا الصدد لخرجت عن موضوعي الزراعي ولكن اكتفي بهذا الوشل القليل لان نفس هذا التغيير يشاهد الى يومنا هذا

ان الامم المختلفة والاجيال المتعددة التي تولت العراق منذ العهد العهيد والزمن القديم الى عصرنا الحاضر قد اعتنت في امر الري والسقي على درجات متفاوتة من الاتقان والترتيب على تفاوت حضارتها واختلاف مدنيتها وكل طور من اطوار الممالك المندرسة قد خلف لنا بعض الآثار التي تنبئ باهتمام تلك المملكة بالري وسقي

المزدرعات . هذه مملكة الكلدان المنقرضة فان ملوكها قد اعتنوا بكري الانهر (كذا تدعو الجداول والقنيّ التي احتفرتها ايدي البشر طبقًا لما سنّتها العرب في العراق وكانوا ولا يزالون يدعون دجلة والفرات الشطّ بمعنى النهر الكبير) فان حمورابي الملك البعيد الصيت (١٦٦٥ — ١٧١٠ ق م) كرى انهرًا كثيرة ومنها نهر حمورابي وغيره وفرّق مياهها على شُعب ثانويّة وجعلها تسقي اراضي جرداء فحولتها الى غياض فيحاء وجنّات غرّاء . . . وكان جلّ اهتمام هذا الملك احتفار الانهر وشقّ الترع بحيث كان كتبة زمانه يؤرخون كتاباتهم بتاريخ حفر نهر او شق ترعة وكذا قل عن خلفه شمشو الونا (١٦١٠—١٦٤٥ ق م) فانهُ كرى نهرًا كبيرًا للسقي دعاه نكاب نحسي ثم احتفر ايضًا اسوردانيل ورمان نيرار الثاني (٨٨٩ — ٩٣٠ ق م) انهرًا كثيرة واصلحا الاسداد التي كان قد اتلفها الفيض

وبعد الكلدان جاء الفرس فاذُوا ايضًا الخدم المشكورة في الري فانهم احتفروا نهر وان او نهر كسرى الذي بهِ زهت الزراعة وبُنيت الضياع على جانبيه وكان مبتداه قرب حلوان وربّما سمّاه السريان تأثرا ايضًا وكان سبب خرابه على ما رواه ياقوت اشتغال الناس بالمحاربات في ايام السلاجقة

ومنها نهر زاور ونهر شيلي ونهر المرأة حفرهُ اردشير الاصغر وفي ايامهم كان نهر سورا ونهر الملك الذي يُنسب احتفاره الى الاسكندر الكبير وكان موقعه بعد نهر عيسى وكان عليهِ ٣٥٠ قرية على عدد ايام السنة . ومن مياه العراق البطائح وهي مستنقعات او اراضٍ كان يغمرها الماء في اسفل العراق بين البصرة والكوفة وسببها ان دجلة انبثق في ايام قباذ فيروز بثقًا كبيرًا بقرب كسكر فاغفل امره حتى غلب ماءهُ وغرّق كثيرًا من الاراضين العامرة كانت تليه وتقرب منهُ فلمّا وُلّي انو شروان العادل امر بذلك الماء فرُحم بالسنيات حتى عاد بعض تلك الاراضين العامرة . ثم خلفه ابنه ابرديز وفي ايامه زاد الفرات ورجعت الحالة على اولها . ولما تزل المسلمون السواد بذلوا الجد والجهد في انهاض الزراعة لا بل ادخلوها في عصرها الذهبي ففاقت ايامها الغابرة . وفي عهد عمر بن الخطاب حُفر نهر الابلة وكان مبداه من نهر الأبّانة والابانة خور في دجلة الموراء سمّاهُ المسلمون بعد الجاهلية الجزارة ومن بعده حذا الخلفاء حذوه وكثرت تشعبات دجلة والفرات ومن بعضها : نهر معقل ونهر الاسارة ونهر عمرو ونهر ام حبيب

ونهر ام عمير ونهر طاحة ونهر حميدة ونهر بشّار ونهر الصلاء ونهر المكحول ونهر الارحاء ونهر ابي الخضيب (وهو لا يزال معروفاً بهذا الاسم) ونهر ابي الاسد ونهر الدير. هذه كانت في اطراف البصرة وفي البصرة نفسها. ونهر ماري بين بغداد والنعمانية وكان مخرجه من الفرات ونهر النيل في سواد الكوفة حفرهُ الحجاج بن يوسف وهو الذي حفر ايضاً نهر الصين والزابي. ونهر ذراع كان بالعراق. ونهر القاطول حفره الرشيد في سُرَّ من راى

وقد ورد في مقدمة تاريخ بغداد لابي بكر ابن الخطيب اسماء الانهار الموجودة في الزوراء في عهد المؤلف وذكرها ايضاً قبله ابن سرابيون واليعقوبي فنقتطف منهم الفوائد الآتية: من اهم انهار دار السلام نهرا عيسى والدجيل ومنهما يتشعب انهار ثانوية تتخرق المحال والدور فتسقي الارضين. وكان مأخذ نهر عيسى من الفرات ويمرّ بفروز شابور وهي الانبار وعلى ضفافه القرى والضياع وعند المحوّل كانت تتفرع منهُ الانهار التي تتسرب الى مدينة بغداد ثمَّ بقرية الياسرية والرومية وقنطرة الرمّان فيصب في دجلة اسفل قصر عيسى وآثار هذا النهر لا تزال ظاهرة الى يومنا وتعرف بالمسعودي ويقال ان عدد الانهار التي كانت تتفرع منهُ بلغت نحو ٦٠٠ نذكر بعضها: نهر الصراة وكان يسقي ضياع بادوريا وبساتينها (ومنهُ يتفرع نهر خندق طاهر). وكرخايا احتفره عيسى عمّ الخليفة جعفر المنصور في عهد تأسيس بغداد ومن كرخايا كان يتفرع انهار كثيرة تنبث في ضياع كانت على جانبيه منها نهر الدجاج ونهر الكبير ونهر قطيفة الكلاب ونهر طابق الخ. اما الدجيل فكان مأخذهُ من دجلة ويتفرع منهُ انهار كثيرة منها: نهر بطاطيا اوله كان في اسفل قرية دجيل بستة فراسخ فيجيء الى بغداد فيمر على عبّارة قنطرة باب الانبار والى شارع الكبش فيتقطع ويتفرع منهُ انهار كثيرة تسقي الحربية وما صاقبها من الاراضين ثم نهر بوطر ونهر بيل الخ

ولم يعتنِ العباسيون بحفر الانهار فقط للري بل كانوا يرقون المياه الى العلو بواسطة اعمال هندسية مائية ومن امثال ذلك ان عضد الدولة زرع لهُ بستاناً واراد ان يسقيه اولاً بالدواليب ولما علم ان تلك الوسيلة لا تفي بالمرغوب انفذ مهندسي عصره فحصروا المياه على نسقٍ هندسي فصارت تسقي البساتين بدون آلة. هذه لمحة وجيزة في اعتناء الشعوب القديمة في امر الري اقتصرت على ذكرها ضيق المكان لان اغلب الانهر

ان لم ارد ان اقول كلها قد عفت رسوم آثارها ودخلت في خبر كان وذلك لرسوب غرَيل دجلة والفرات عند افواه الانهر واشتغال الناس بالمحاربات ولاسيما في عهد هولاكو والعجم

اما اليوم فاخذت الزراعة تتردّى بجلباب عزها وتتقدّم رويدًا رويدًا تحت ظل الدولة العليّة العثمانية . واليك اسماء الانهار التي تتشعب من الانهار الكبيرة كدجلة والفرات وديالة : من الفرات من جانبه الايسر نهر الكفائية وعليه قرية الصقلاوية ويصب في دجلة الى جنوبي بغداد ونهر الوضوانيّة مأخذهُ جنوبي فاوجة وينتهي عند مزار الست زبيدة ونهر المحمودية ونهر اسكندر ونهر السيب ونهر المحاويل من أيام هارون الرشيد . ونهر الشاه كُريَ في عهد الشاه عباس الكبير . ومن طريق اليمين نهر الحسين احتفرهُ السلطان سليمان الاول مدّة اقامته في بغداد سنة ٩٤٢هـ (١٥٤٤م) موقعهُ بين السيب وكربلا في منتصف الطريق تقريباً . وبعدهُ نهر الهندية قيل ان احتفارهُ كان على يد احد الهنود الاغنياء ونهر ابي نديم الخ ولولا خوفي من ان اورث الملل في نفس القراء لاتيت باسماء الانهار الموجودة على مسامعهم انهيال السيل لانَّ في سنجق الحلة وحده يعد اكثر من ستين نهرًا يأخذ من الفرات ويقطع تلك الاصقاع طولًا وعرضًا

ومن دجلة من الجانب الايسر يتفرع نهر التحويطة ومن الجانب الايمن نهر دجيل والسماكية ونهر مشري والاحجلة الذي مصدرهُ قرب العمارة . ونهر الداجه . ونهر الحي يخرج من دجلة قرب كوت الامارة ويمر بكوت الحي ويجتمع بنهر أم الجنّال . ونهر أم الجنّال من دجلة ايضاً في ٢٠ كيلومترًا من غربي الامارة ويجتمع بالفرات على ١٠ كيلومترات في شرقي سوق الشيوخ . ومن ديالة يخرج نهر دلتاوه والخالص ونهر بلدرز والهارونية ومهروت ونهر شروان وخريسان . ومن انهار العراق نهر الغظ في مندلي (وهي بندنجين) ونهر الوند في خانقين ومأخذهما من جبال العجم . ونهر الكلال الذي يسقي بدرة وجصان . وفي البصرة انهر كثيرة تتشعب من شط العرب اخصها المهجران وحمدان ولوسفان والعشار والحوزة والسراجي ونهر خوز وكتيبان ونهر جاسم الخ

هذا كلهُ ليس بشيء من جهة الحجم والمنافع الجمة التي تقدر ان تفيد انهار العراق لو بذل الاهالون الهمة في تصليح بعض الانهر القديمة كنهروان واصلاح الاسداد

وتخطيط انهر جديدة كثيرة لا سيما بين دجلة والفرات وانشاء مخازن لحفظ المياه عند الفيض فتتوزع على الاراضين في وقت هبوط المياه وهذه واسطة ايضاً تحفظ الاراضين من الغرق عند الفيض فان زراعة العراق تتحسن وتتقدَّم عشرين ضعفاً عما هي الآن وهذا كلام لا القيه على عواهنه بل يثبتهُ واقع الحال . وكثيرًا ما وقفت على دجلة آسفاً على الملايين من المترات المكعبة من المياه التي تتحدر بسرعة عجيبة وتصب في لجج البحر دون ان يُنتفع بها . فيا اسفاه على مياه دجلة والفرات العذبة التي تغنت بها الشعراء تذهب جزافاً وتختلط بمياه البحر المالحة !!

ان الاراضين التي تزرع على ضفاف دجلة والفرات تكون غالباً عالية لا تصلها المياه عندما تكون في حدّ الاعتدال ولهذا اتخذ سكان بابل الآلات والادوات باكرًا لسقي المزارع وقد استعملت لسقي جنات بابل المعلقة احدى عجائب الدنيا السبع التي ابتناها نبوكد نصر وقد غُرست فيها الاشجار والاوراد النادرة وكان موقعها على رأي الموسيو اپرت (Oppert) في تل عمران اليوم . وقد وصف هذه الآلات الجغرافي استرابون وذكرها هيرودوت في رحلته ايضاً وهي اكدد . وما ادراكم ما اكدد ! آلة في غاية البساطة : يُرفع قائمتان على النهر يختلف علوهما بين المترين والثلاثة الامتار يجمع بينهما بخشبة معترضة ويركب على القائمتين بكرة من خشب التوت ويلقى عليها حبل وبالطرف الواحد من الحبل يشد راس الدلو واما الطرف الآخر من الحبل فيشد بحيوان . ثم تربط الدلو من اسفلها بقد من الاديم . فيسر القد من الاديم على بكرة صغيرة مركوزة على علو بضع سنتيمترات من الارض ويجتمع جانبهُ الآخر بالدابة ايضاً . والدابة يصعدها الرجل ويتلها في ميدان يُحفر في الارض يوازي بعد الماء عن الارض فاذا كان الرجل والدابة الى آخر الميدان صعدت الدلو ممتلئة ماء وصبت في حوض . والدلاب المستعملة لهذه الغاية فهي البراذي (الكُدُش) والثيران وكلُّ دابة مع قائدها تشتغل اربع ساعات متوالية وهذا ما سموه بالعدة . ويعرف الفلاح الوقت بالمزاول فاذا حان الوقت نادى رفيقهُ الذي تجي نوبته وهو لا يغلط ابدًا في الوقت ولتحقيق ذلك نظرت لهذه الغاية وضبطت الوقت في ساعتي فكان الوقت دائماً مدققاً

وفي البصرة يوجد طريقة اخرى لسقي الاراضين وهي الاستقاء بالسلة او بالدلو

وهذا ما يُسمَّى بالشادوف عند اهل مصر وبالمتزقة عند قدماء العرب . ويلزم الفلّاح صبر القديس يوحنّا الصغير من سياح مصر لبلوغ اربعة لان السلّة لا تستقي كل مرّة اكثر من لترين او ثلاثة لترات . وقد دخلت حديثاً النواعير الخشبيّة والحديديّة والمحركات التي تتحرّك بالبترول فبلغ عددها نحو ٤٠ محركاً وهي طريقة اقتصاديّة توفر مصاريف جمة الّا ان العائق عن انتشارها ارتفاع اسعارها فان اصحاب الاملاك اغلبهم ضعيفو الحال وليسوا من المثرين

ولاهل العراق واسطة يقدرون ان يستعينوا بها لسقي الاراضين وهي ان تتألف بينهم شركة ويجلبون محركات منتقلة تركّب في السفن فتمر السفينة من محل الى محل آخر عندما يراد سقيه . وفي ابان الفيض العالي المصطلح عليه بالحيال في العراق يصل الماء الى جميع الاراضي بدون استثناء وذلك توّاً من النهر بواسطة انهر محفورة لهذه الغاية بدون عناء ولا تعب

ومن المزروعات السنويّة ما هو عذي وهو الزرع الذي لا يسقيه الّا المطر ونحن العراقيين نسمّيه بالدّيم . وهناك نوع آخر من الزرع لا يبقى ابداً بل يستمدّ ماءه من ارض دخلها السيل مدة طويلة فترك هناك غريلّا يبقى رطباً مدّة مديدة فيبذر زرعاً يوافق تلك الارض وينتفع بماء قليل كالسمسم والهرطمان والذرة ونحوها ويسمون هذا بالكبس ويلفظونهُ (الچبس) ويقولون اكباسيّ (الچباسي) وفي البصرة اذا صعد الماء عند المد دخل المزدرعات وغيطان النخل فسقاها واذا جزر نزل عنها بعد ان يكون قد افادها كل الفائدة

— ادوات الزراعة — اي محراث وادوات يستعملها الفلّاح العراقي لحرث الاراضي وقلبها وحصاد زرعه ودرسه ؟ هذا امرٌ سهل الجواب عليه لاحتصار دائرته وقلّة مواده وضعف عدّته . فان الادوات التي تتخذها ايدي الفلاحين العراقيين في غاية البساطة وطريقة العمل جدًّا يرتقي تاريخ وجودها الى الفي سنة وهي اثر من الآثار التي تنبئ باستمساك الشرقيين بعاداتهم القديمة وميلهم الى الالتصاق والتقيد بتيودها وان كانت تربطهم وتعيقهم عن الجري في مضمار التقدم والنزول في ميدان المسابقة

المحراث : خفيف الثقل بسيط التركيب مؤلف من خشب وقطعة حديد او ربّما كان كلهُ من خشب يسحب على الارض بيد الانسان او يسحبهُ حيوان او حيوانان ويمرّ

مراراً كثيرة على الارض الواحدة حتى يتمكن من حرثها ولولا هشاشة التربة العراقيّة لما قوي عليها هذا الحراث ولكن اين بطأهُ من سرعة الاعمال التي تقتضيها المحارث الحديثة الاختراع المتقنة الصنعة التي تتحرك بالبخار على النمط الجديد

دوس الحنطة : لذلك ثلاث طرائق الاولى ان تُهرس بالمهراس وهو خشبة تضرب بها الحنطة فينفصل الحب من السنبل . والثانية ان تكوَّم كوماً وفي نصفها يركز مرجاس وبالمرجاس تربط بغلة فتسحق الحنطة برجلها وبعده تذرَّى الحنطة بالهواء بمذراة من خشب فيسقط التبن بجانب والحب على البيدر الّا انَّ ارقى هذه الوسائط وارتبها نوعاً وهو المعوَّل عليه اليوم في العراق هي دوسها بالجرجر والجرجر اشهر من ان يوصف ويسمَّى في لغة الافرنج (Rouleau à dépiquage) فلتشاهد صورتهُ في معاجمهم وهي تقوم مقام الوصف

المرَّازة — وهي مؤلفة من دائرة بلسان رفيعة من خشب مغروسة براس عودة وبها حبل فيتقابل عليها شخصان الواحد بازاء الآخر فالواحد يدفعها في قلب الارض والثاني يسحبها بالحبل الى الامام وتستخدم هذه الآلة لحرث الاراضي الهشة

المسحاة — لحفر الاراضي وقلع الاشجار وغرسها

المنجل — لقطف المزروعات وحصاد الحنطة والشعير وهذا معروف فلا يحتاج الى وصف واصفٍ . اه

— الفلاحون — من هم الفلاحون العراقيون والزراعون وفي اي مدرسة درسوا ؟ هم من عشائر الاعراب . منبثون في اطراف العراق تلذُّ لهم العيشة المتجولة وسكناهم تحت الخيام المصنوعة من شعر المعزى وكل قبيلة لها شيخ معروف من الحكومة العثمانيّة ويتفاخرون بالغزوات ويتباهون باعمال الرجوليّة يقضون ايامهم في كرٍّ وفرٍّ وظعن متواصل فلا يقرّ لهم قرار ولهذا ترى القرى قليلة في العراق فلا يبلغ عدُّها الستين . ولا يخفى الاديب الاريب ان القرى هي التي تجهز للمدن الرجال وتساعد على تقدم الزراعة تقدماً عظيماً فاليت اهل البدو كانوا يتعودون عيشة القرى ويستوطنون في مركز معلوم ويلهون نفوسهم بالزراعة ويتخذونها دأبهم وديدنهم فلو فعلوا لافادوا العراق بوجودهم اكبر فائدة الّا انهم في القرى ونواحي الولايات يسكنون في بيوت حقيرة من الطين ويجهلون القراءة والكتابة ومعلوماتهم الزراعية مقتصرة على الاختبارات المتطيلة

وما يتوارثهُ الخلف عن السلف ولم تصلهم بعد منافع الدروس الزراعيَّة القانونيَّة كما أنها لم تحدث ادنى تغيير في كيفية الزراعة العراقية

وقد جاء الى الزوراء بعض دارسي فن الزراعة مرتين او ثلاثاً ولكنهم لم يتجهوا في طرائقهم وذلك لاسباب نوردها لكي يطلع عليها من لهُ رغبة في درس هذا الفرع الجليل من الفنون ولا تنكبط همتهُ. فالسبب الاوَّل هو ان بعضهم كان من المحدثين في هذا الفرع ولم يحصل منهُ الَّا المعلومات النزرة . والثاني لانهم ارادوا زراعة بعض الفصائل النباتية في هذه النواحي كما تُزرع في غير جهات بغض النظر عن اختلاف الاقاليم والمناخ والتربة. والثالث لكونهم لم يطابقوا دروسهم على اختبارات الاهلين التي لها اعظم شأن في هذا المقام . وعندي ان ارض العراق في اطراف سامرَّا والحلة وكوت الامارة والعمارة هي احسن موقع لانشاء المدارس الزراعيَّة اولًا لجودة التربة ثانياً لرخص عيشة التلامذة هناك. ولو تبرَّع احد المتمولين واسس في وطننا مدرسة زراعيَّة في احدى النواحي التي ذكرتها سابقاً لافاد الزراعة العراقيَّة اعظم فائدة وخدم وطنهُ احسن خدمة. هذا فضلًا عن الارباح التي تعود عليهِ من مشروعه هذا. ولا يقتضي لذلك اكثر من ثلاثين الف ليرة لشراء اراضي للزراعة وبناء مدرسة ولوازم الدرس وادوات الزراعة فانا لمتأكد ان هذا المبلغ سيعطي فائدة ١٢ بالماية سنويًا فمن لا يرضى بهذه التجارة التي هي كلها صفقة ربح لهُ من وجهتين ماديَّة وادبيَّة ويكون اهلًا لشكر الاهلين

*

بعد ما سرَّحنا النظر في ما مرَّ من المعلومات حسبما اقتضى المقام لنقول كلمة عن جباية العراق الزراعي سابقاً واليوم . كانت الدولة الساسانية تأخذ من حاصلات العراق ما يتمنَّى لها من الرسوم متناسبة ولا يجوز لاصحاب الاملاك والمزروعات ان يتمتعوا بثمار اتعابهم قبل ان تؤخذ منهم الضرائب غير ان فيروز بن فيروز لم يستحسن هذا النمط بل غيرهُ . وفي ايام كسرى انو شروان كانت الاكاسرة تضرب على العراق الضرائب كما يأتي : على كل جريب (عبارة عن ٣٦٠٠ ذراع مربع) قفيزًا ودرهماً وهي عبارة عن ١٢١/٢ بالمائة ثم على الكرم ١٠ دراهم وعلى النخيل ٨ وعلى القصب ٦ وعلى الرطبة والشعير درهمين. وبقي السواد عامرًا الى انقراض الراشدين وفي عهد بني أميَّة كانت الاراضي تضرب بالضرائب وان بقيت بورًا بلا زرع

وقد ابطل المنصور هـذه السنّة وامر ابنهُ المهدي ان يوْخذ نصف الغلة من الاراضي التي تسقى سيحاً بلا تعب . والثلث من الارض التي تسقى بالدوالي . والربع من الارض التي تسقى بالدواليب . اما اليوم فتوْخذ الرسوم الميرية حسب ملك الاراضي المزروعة وكيفية سقيها ونوع المزروعات . ولايضاح ذلك نقول ان اراضي العراق نظراً لملكيتها تقسم الى اراض ميرية وهي الراجعة الى الحكومة العثمانية ونسبتها الى جميع الاراضي المزروعة ١٠٠/٢٠ تقريباً واراض سنية وتقدر ١٠٠/٥ واراض وقفية وهي المحبوسة لاعمال البر وتبلغ ١٠٠/١٢ واراض للاهالي وتقدر ١٠٠/٦٨ . اما المزروعات فتقسم الى صيفية وشتوية فالصيفية تشتمل على الذرة والسمسم والعدس والماش الخ . والشتوية تشتمل على الحنطة والشعير الخ . اما نظراً للسقي فتقسم الى الاقسام التالية : البكرة وهي التي تسقى بالكرود والآلات المستحدثة . والديمي وهو الزرع الذي يسقى سيحاً بمياه المطر . والجبس وهو الذي يزرع على الغدران ومياه المطر . والنهري وهو الذي يسقى بالانهار التي تتشعب من دجلة والفرات

ان الاراضي الميرية والسنية والوقفية تعطي بالكراء ما لها من الحقوق لاحد الاهالي وهذا ما يصطلح عليهِ بالمقاطعة ولاجل استيفاء حقوق ملكيـة الارض او الرسوم من الاعشار والاخماس تعين فئة من اهل العرف والوجدان فتقـدر كمية الحاصلات وعليهِ توْخذ من اصحابها الرسوم والضرائب . اما البساتين التي تسقى بالانهر فتضرب بالخمس من حاصلاتها والبكرة بالعشر

(بعض فوائد زراعيّة) الزَبد — هو ذراع يصطلح عليهِ اهل العراق وطولهُ بطول المساحة

الفدّان — قطعة من الارض يزرع فيها ٥٠٠ اقة حنطة او ٧٠٠ اقة شعير

الجريب — ارض فيها مئة نخلة

هذا وان سمحت لي الظروف والفرص سأشفع هذه المقالة بنبذة عن الفصائل النباتيـة في العراق وتكون تتمة لهذه الاسطر . ان شاء الله